

Published biannually by :
HADITH AND AQIDAH RESEARCH INSTITUTE (INHAD), Selangor International Islamic University College (KUIS)
Bandar Seri Putra, 43600, Bangi, Selangor (Darul Ehsan) Malaysia, Tel: 03 - 8911 7000 Ext: 6129/6130. Fax: 03 - 8926 6279
Email: jurnalhadis@kuis.edu.my Web: www.journal.kuis.edu.my/hadis/

مفهوم "تزكية النفس" وأهميتها
في القرآن الكريم والسنة النبوية

محمد شهيد الإسلام الفاروقي

الملخص

إن "تزكية النفس"، والسعي إلى تحليتها بالإيمان والعمل الصالح، وتنقيتها من أدران الشرك والمعاصي، والارتقاء بها في مدارج الكمال الإيماني، مهمة جداً في حياة الناس، وتقوم عليها حياتهم من أولها إلى آخرها، وهي مرتبطة بهدف خلق الإنسان. وهذا البحثُ يهدف إلى بيان مفهوم "تزكية النفس" وأهميتها في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، كي يبرز من خلالهما مفهومها وأهميتها، لكونهما المصدرين الأولين الأساسيين. واتَّبع الباحث في إعداد هذا البحث المنهج الاستقرائي، لاستقراء النصوص الشرعية من الكتاب والسنة المتعلقة بموضوع البحث، وكذلك اتَّبع المنهجَ التحليلي لتحليل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية.

الكلمات المفتاحية: التزكية، النفس، المفهوم، القرآن، السنة، الأهمية.

THE CONCEPT OF TAZKIYATUN NAFS (PURIFICATION OF SOULS) IN THE LIGHT OF QURAN AND SUNNAH

Md. Shaheed ul Islam Farooqi

Ph.D Student, Department of Quran and Sunnah Studies, Kulliyah of Revealed Knowledge and Human Sciences, International Islamic University Malaysia (IIUM), email: faruqiiium@gmail.com

ABSTRACT

The purification of Nafs (soul), decoration of Nafs with Iman (beliefs) and good deeds, abstaining from Shirk and Sins, fulfillment of Iman and pick up the ethical

character and habit are most important in human life. Purification of life is vital part where our whole life stands. The main purpose of creatures is purification of soul (Tazkiyatun Nafs). The aim of this study is to describe the views of Tazkiyatun Nafs (purification of souls) in the light of the Quran, Sunnah which are the main sources of Islam. The study follows the inductive methods in order to reach a conclusion after studying the text on the topic. It also scrutinizes analytical methods in order to analyze the Quran and Sunnah.

Keywords: *At-Tazkiyah, An-Nafs, Concepts, Quran, Sunnah, Importance of purification of soul*

Received: May 25, 2015 Accepted: September 19, 2016 Online Published: Dec 20, 2017

المقدمة:

إن "تزكية النفس" من أعظم مقاصد الدين، ومن أجلّ وظائف الأنبياء والمرسلين، ومن أهم المطلوبات من أتباعهم المؤمنين؛ لأن الدين بما فيه من اعتقادات ومعاملات وعبادات وأخلاق كلها طرقٌ لتزكية النفس، والالتزام بأحكام الدين في الظاهر والباطن، وفي العلم والعمل، وفي العبادات والمعاملات، وسائر مجالات الحياة، وسيلةٌ لتزكية الأفراد والمجتمعات، ونجاحُ المسلمين رهنٌ بتزكية أنفسنا، وهو حقيقةٌ أكدها الإسلام في كتابه العزيز، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَد أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:7 -10].

ولذلك كانت التزكية عنصراً مهماً في رسالة النبي ﷺ؛ لأنه المربِّي والمزكِّي لأمته، والمرشد إلى طريق الخير، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:164]. وكما قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»[1].

وكذلك كلَّف اللهُ الرسلَ أيضاً بتزكية غيرهم تحقيقاً لما أمرهم به، وقياماً بالمهمة التي أرسلهم بها، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:103]. وقال أيضاً: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:151].

وهذا البحث يتناول هذا الموضوع في مبحثين، ويعرّف في أولهما بمفهوم" تزكية النفس" في اللغة والاصطلاح وبعض المصطلحات المستخدَمة في كتابات السلف على معناها، وأما في الثاني فيعرِّف بأهمية "تزكية النفس" في ضوء ما جاء من الآيات الكريمة في القرآن الكريم، والنصوص

[1] أخرجه البيهقي في **السنن الكبرى**، ج10، ص191، رقم20571. وأخرج نحوه البخاري في **الأدب المفرد**، باب حسن الخلق، ص104، رقم273. وصححه الألباني.

الشريفة في الأحاديث النبوية، ثم يختم البحث بنتائج مفيدة توصَّل إليها الباحث من خلال إعداده له.

المبحث الأول: مفهوم "تزكية النفس" في اللغة والاصطلاح وبعض المصطلحات المستخدَمة في كتابات السلف على معناها:

المطلب الأول: تعريف "التزكية" في اللغة والاصطلاح":

(أ) "التزكية" في اللغة"

"التزكية" مأخوذة من "الزكاة"، ولها معان مختلفة في اللغة كما يأتي:

الأول: بمعنى المدح والثناء[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:32]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النساء:49].

والثاني: الطهارة والصلاح[3]، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:9]، وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:103].

والثالث: الزيادة والنماء[4]، قال علي بن أبي طالب ﷺ: "العلم يزكو على الإنفاق"[5]، أي: يزيد.

والمقصود بالتزكية في هذا البحث ما يعنيه مفهومها الثالث والثالث، أي: الطهارة والصلاح، والنماء والزيادة؛ لأن "تزكية النفس" شاملة لأمرين: الأمر الأول: تطهيرها من الأدران والأوساخ، والأمر الثاني: تنميتها بازديادها من الطاعات والأوصاف الحميدة. أما المعنى الأول فهو تخليتها عن الأوصاف الذميمة والمعاصي والمنكرات. والمعني الثاني فهو تحليتها بالخصائل الحميدة والأعمال الصالحة.

وقد وردت هذه الكلمة في مواضع متعددة من القرآن الكريم[6]، فتارةً تُنسب إلى الله تعالى، وتارةً تُنسب إلى العباد، وها أنا ألخص المعاني التي وردت فيها كلمة "التزكية" في آيات القرآن الكريم في النقاط الأربع الآتية:

---

[2] ابن منظور، **لسان العرب**، (مادة زكاة)، ج3، ص1849؛ القرطبي، **تفسير أحكام القرآن**، ج1، ص343.

[3] المرجع السابق.

[4] ابن منظور، (مادة زكاة)، ج3، ص1849؛ القرطبي، **تفسير القرطبي**، ج1، ص343.

[5] أخرجه المعافى بن زكريا في **الجليس الصالح والأنيس الناصح**، ص381؛ والخطيب البغدادي في **تاريخ بغداد**، ج6، ص379 (ومن طريقه ابن عساكر، في **تاريخ دمشق**، ج50، ص251): بسنديهما عن كميل بن زياد النخعي قال: أخذ علي بن أبي طالب. وذكره.

[6] الفيروز آبادي، **بصائر ذو التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، ج3، ص132–135، ما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي فيها الحديث عن التزكية والمعاني المقصود بها، قُسِّم إلى أربعة عشر وجها كلها ترجع إلى المعاني الأربعة التي ذكرتها.

1- نُسبت "التزكية" إلى الله تعالى بمعنى:

أ - الهداية والتوفيق في الدنيا، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 49].

ب- تطهير المؤمنين من دنس الذنوب في الآخرة، ومنه قوله تعالى عن الكفَّار: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174].

2-نُسبت "التزكية" إلى الرسول ﷺ؛ لأنه المربّي والمزكيّ لأمته، والمرشد إلى طريق الخير، قال الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَتْلُواْ عليكُمْ آيَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151].

3- ونُسبت التزكية إلى العبد؛ لأنه:

أ- يزكّي نفسَه بالإيمان والمجاهدة، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّٰهَا﴾ [الشمس: 9].

ب- يزكّي أموالَه بدفع الزكاة التي هي حق الفقير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَآتُواْ الزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 43].

ج- يزكّي طعامَه بالبحث عن الحلال الطيب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف: 19].

4- وردت "التزكية" في القرآن الكريم في معرض الحديث عن دعوى التزكية، بأن يمدح الإنسان نفسه تفاخراً أو تظاهراً بالصلاح والتقوى، وهو شيء مذموم ومنهيّ عنه، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 49].

وتبيَّن مما سبق: أن "التزكية" في القرآن الكريم على نوعين منها، وهما: التزكية المذمومة، والتزكية الممدوحة.

أما "التزكية المذمومة" فهي التي نهى الشارع الحكيم عنها وذَمَّها وقبحها، وقبح أهلها وعاب عليهم تزكية نفوسهم. وهذه التزكية تكون بمدح الإنسان نفسَه والثناء عليها بما ليس فيها، كما كان يحرص اليهود على هذ النوع من التزكية، فقد كانوا يزكون أنفسهم مدعين أنها ليس لهم، ولا لآبائهم ذنوب، فهم أصحاب الجنة؛ لذلك بزعمهم قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً - انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْماً مُّبِيناً﴾ [النساء: 49-50].

ونهى الله عن هذه التزكية وذمَّها أيضاً بقوله: ﴿فَلاَ تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: 32][7].

[7] محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، ج3، ص277.

﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾، وبهذه العبارة المختصرة التي تفيد الإطلاق والعموم، نهى الشارع الحكيم في نصوص من القرآن والسنة عن تزكية الإنسان نفسه، والنهي يقتضي فساد المنهي عنه في الغالب، وإذا استقرينا نصوص الشرع التي وردت في التزكية، ألفينا مادةً غزيرةً تدل مضامينها على أن تزكية النفس شيمة من شيم المنافقين، وصفة من صفات اليهود المارقين، فقد زكى المنافقون أنفسهم بقولهم: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 8]، وما كانوا كما قالوا، وقد زكى اليهود أنفسهم بقولهم أيضاً: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُوْنَ﴾ [البقرة: 11] مع أنهم كانوا مفسدين، وقد زكى اليهود أنفسهم بقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءِ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18]، وقولهم: ﴿لَن يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوْدًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: 111]، كما زكوا أنفسهم بنفي صفة الإفساد والمعصية والإذناب عن ذواتهم، هذا فضلاً عن ثناء بعضهم على بعض.

وقد ورد العديد من الأحاديث عن النبي ﷺ تحذر من مدح الناس في وجوههم، وتأمر بأن يحثو المسلم التراب في وجوه هؤلاء المداحين، عقوبةً لهم على هذه التزكية المنهي عنها، روى الإمام الترمذي في سننه بإسناده إلى أبي معمر قال: "قام رجل فأثنى على أمير من الأمراء، فجعل المقداد يحثو في وجهه التراب، وقال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب"[8].

وفي الصحيحين عن طريق خالد بن الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يُثني على رجل فقال: «ويحك! قطعت عنق صاحبك»، ثم قال: «إن كان أحدُكم مادحاً حبه لا محالة، فليقل: أحسبه كذا أو لا يزكّي على الله أحدا»[9]، وروى ابن ماجه: «إياكم والتمادح فإنه الذبح»[10].

والخلاصة: هذه التزكية مرفوضة إلا لضرورة شرعية، وليست موضع حديث البحث.

أما "التزكية الممدوحة" التي مدحها القرآن الكريم، وأثنى على صاحبها، وبشّره بالفوز والنجاة، فهي بمعنى تطهير النفوس من أرجاس الشرك والكفر وأدناس الذنوب والمعاصي، وتنمية الخير في نفوس الناس وفق مراد الشارع الحكيم، وزيادة التقوى عندهم.

ومفهوم "التزكية" بهذا المعنى من المفاهيم الأصلية في القرآن الكريم والسنة النبوية، فقد أكّد القرآن الكريم على الربط بين تزكية النفس وفلاح الإنسان، ذلك الفلاح الذي جعله من أسمى

---

[8] أخرجه الترمذي في **سننه**، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ماجاء في كراهية المدحة المداحين، ج4، ص600، رقم2393، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

[9] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، رقم5714، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح...، رقم3000.

[10] أخرجه ابن ماجه في سننه، كاب الأدب، باب المدح، رقم3743، وهو حديث حسن.

الغايات للخلق، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا – وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9-10]، فهي عنصر مهم في رسالة الإسلام، بل هي من المهمات التي أوكلها الله سبحانه للرسل والأنبياء. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ بَعَثَ فِيْهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوْ مِن قَبْلُ لَفِيْ ضَلَالٍ مُّبِيْنٍ﴾ [آل عمران: 164]، وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103].

وتزكية النفس تدعو إلى التخلّي عن الأخلاق الذميمة والسلوكيات السيئة، وإحلال الأخلاق الفاضلة محلها لتصبح النفس طاهرةً نقيةً، ويكون صلاحها في الفرد عنوان المجتمع، وهي طريقة لمضاعفة الحسنات، وتؤدّي إلى الجنة، وإلى هذا أرشد القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَاْ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُواْ عِندَ اللهِ، وَمَآ ءاتَيْتُمْ مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ، فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: 39]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَٰتُ الْعُلَىٰ، جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: 75-76].

وهذه التزكية منحة من الله تعالى وتوفيق إلهيّ، فينبغي على المؤمن أن يهرع ربّه سبحانه بالدعاء والرجاء والضراعة، أن يرزقه هذه التزكيةَ، وأن يعينه على ذلك، فقد كان الرسول ﷺ يدعو ربه ويطلب منه تزكية نفسه، فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ. اللَّهُمَّ! آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا. أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاهاهَا. اللَّهُمَّ! إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا»[11].

(ب) "التزكية" في الاصطلاح:

لا يوجد تعريفاً اصطلاحاً للتزكية عند العلماء المتقدمين، وقد حاول بعض العلماء المتأخرين والمعاصرين تعريفها اصطلاحاً، وها هي تعريفاتهم لها:

قال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية (ت728هـ): "هي تطهير النفوس وإصلاحها بالعلم النافع والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المنهيات"[12].

وأما تلميذه الإمام ابن قيم الجوزية (ت751هـ) فالتزكية عنده تتطلّب أمرين[13]:

---

[11] **أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، رقم2722.**

[12] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج1، ص97.

الأول: تطهير ومعالجة الصفات السلبية المذمومة لدى الشخص، والتخلص منها عن طريق التوبة والاستغفار[14].

أما الأمر الثاني في تحقيق تزكية النفس لديه، فينصرف إلى تأسيس صفات إيجابية في النفس والترقي بها على نحوٍ يتسم بالاستمرارية. فالتزكية هنا تعمل على تنمية الشخصية الإنسانية بثروة من القيم الحافزة الدافعة للإنسان إلى الخير. وهي بذلك تحقق الغنى الحقيقي للنفس مصداقاً للحديث الوارد عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْس»[15].

فالتزكية في منهج ابن القيّم هي العمل الإنساني والسعي الكسبي للترقي بالنفس، والوصول بها إلى فعل الطاعة، واجتناب المعصية، وهو التحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل، وهو ما أطلق عليه في بعض مؤلفاته آمال النفس ومعرفتها ما تسعد به، ونقصها وما تشقى به[16].

وقال الشيخ سعيد حوى (ت1409هـ): "زكاة النفس تطهيرها من أمراض وآفات، وتحققها بمقامات، وتخلقها بأسماء وصفات، فالتزكية في النهاية: تطهّر وتحقّق وتخلّق"[17]، وقال في موضع آخر: "تخليص النفس من نجاساتها ومن شهوانيتها الخاطئة، وحيوانيتها الهابطة، ومن منازعتها الربوبية، وتخليصها من كل أنواع الظلمات، وإنما بعث الرسل – عليهم السلام – لمثل هذا"[18].

وقال الشيخ محمد الغزالي (ت1416هـ): "تكميل النفس الإنسانية بقمع أهوائها، وإطلاق خصائصها العليا"[19].

وقال الشيخ أبو الحسن على الحسني الندوي (ت1420هـ): "نسمي العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية، وتخليتها عن الرذائل النفسية الخلقية، ويدعو

---

13 العلواني، رقية طه جابر، **منهج ابن قيم الجوزية في تزكية النفس**، (مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج٩، ع٣١، رمضان ١٤٢٥هـ).

14 انظر: ابن قيم الجوزية، **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح بتصرف**، ص267.

15 أخرجه البخاري، في **صحيحه**، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، ج5، ص2368، رقم6081؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الزكاة، باب ليس الغني عن كثرة العرض، ج2، ص726، رقم120-(1051).

16 ابن قيم الجوزية، **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**، ج1، ص189، (انظر: د. رقية طه جابر العلواني، **منهج ابن القيم الجوزية في تزكية النفس**، ج١٩، ع٣١.

17 سعيد حوى، **المستخلص في تزكية الأنفس**، ص3.

18 المرجع السابق، ص28.

19 الشيخ محمد الغزالي، **خطبه**، ج2، ص228.

إلى كمال الإيمان والحصول على درجة الإحسان، والتخلّق بالأخلاق النبوية، واتباع الرسول ﷺ في صفاته الباطنية وكيفياته الإيمانية... (التزكية) أو (الإحسان) أو (فقه الباطن)"[20].

ومما جاء في هذه التعريفات نفهم من خلالها: أن "تزكية النفس" في الشرع هي تطهير النفوس، وتصفية الأخلاق وإصلاحها بالعلم النافع والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المنهيات، وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الرذائل النفسية الخلقية، والحصول على درجة الإحسان، وتكميل النفس الإنسانية. وقد ثبت في تفسير التزكية عن رسول الله ﷺ ما رُوي عن عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه أنه قال: "أنْ يَعْلَمَ أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ". كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ يقول: «ثَلاَثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الإيْمَان: مَنْ عَبَدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ بِأَنَّهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ، وَأعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسَهُ فِيْ كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الهَرِمَةَ وَلاَ الدَّرِنَةَ، وَلاَ الْمَرِيْضَةَ، وَلَكِنْ مِنْ أوْسَطِ أمْوَالِكُمْ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهَا وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهَا، وَزَكَّى نَفْسَهُ». فقال رَجُلٌ: وما تَزْكِيَةُ النَّفْسِ؟ فقال ﷺ: «أن يَعْلَمَ أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ"[21]، كما جاء حديث جبريل المشهور: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[22].

المطلب الثاني: بعض المصطلحات التي كانت تُستخدم في كتابات السلف للدلالة على معنى "التزكية":

استُخدمت بعض المصطلحات في كتابات السلف للدلالة على معنى التزكية؛ فمنها ما يلي:

1) "الإحسان":

ورد هذا اللفظ في الحديث النبوي في معنى "تزكية النفس"، كما في حديث جبيريل – عليه السّلام – هذا، حين سأل الرسولَ ﷺ عن الإحسان فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، فقد عبَّر ﷺ عن الركن الثالث من أركان الدين الإسلامي، وقد ورد

---

[20] أبو الحسن على الندوي، **العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء القرآن والسنة والسيرة النبوية**، ص 134.

[21] أخرجه الطبراني، في **المعجم الصغير**، ج1، ص201، والبيهقي في **السنن الكبرى**، ج4، ص95. وصححه محمد ناصر الدين الألباني في **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، رقم1046.

[22] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل عليه السلام عن الإيمان والإسلام والإحسان، ج1، ص87، رقم 50، وأخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، ج1، ص36، رقم 9.

منصوصًا عليه في حديث جبريل المشهور[23]، ولا تخفى المناسبة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي الشرعي.

فالإحسان مطلوب في إسلامنا وإيماننا، في عباداتنا ومعاملاتنا، في بيعنا وشرائنا، في علمنا وتعليمنا، في قضائنا واقتضائنا، ومطلوب في معاملة الحيوان والنبات والجماد، كما هو مطلوب أيضاً في معاملة الإنسان، فإن عبادة الله التي يراعى فيها الشهود القلبي للحق أو مراقبةُ الله تعالى تقتضي معرفتَه، وتستلزم إتقان ما يقرب إليه من العمل، وتثمر الاستقامة على المنهج الرباني، وتكون لا محالة على جهة الإخلاص والتبري من الحول والقوة، وترتقي بالإنسان إلى كماله المقدر له في علم الله عزَّ وجلَّ.

2) "الفقه الباطن":

استعمل هذا اللفظَ علماء التربية والسلوك للأحكام الباطنية مقابلَ "فقه الظاهر" للأحكام العملية والظاهرية، كما قال الإمام ابن تيمية: "علم الباطن الذي هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الإيمان الباطنة، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة"[24].

واستخدموا فقه الباطن دلالة على تزكية النفوس وبلوغ الزهد واستشعار درجة الإحسان، لذلك قال الشيخ أبو الحسن الندوي: "كان الأجدر بنا أن نسمي العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الرذائل النفسية الخلقية، ويدعو إلى كمال الإيمان والحصول على درجة الإحسان، والتخلّق بالأخلاق النبوية، واتباع الرسول ﷺ في صفاته الباطنية وكيفياته الإيمانية؛ كان الأجدر بنا وبالمسلمين أن يسموه: (التزكية) أو (الإحسان) أو (فقه الباطن)، فالتزكية والإحسان وفقه الباطن حقائق شرعية علمية، ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنة، يُقِرّ بها المسلمون جميعاً"[25].

3) "الزهد":

استعمل هذا اللفظَ علماءُ التربية والسلوك المتقدمين دلالةً على تزكية النفوس، وبلوغ الزهد، واستشعار درجة الإحسان. ويرجع أصل هذا اللفظ إلى فعل "زَهِدَ"، ومعناه: أعرض، أو تخلّص

[23] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل عليه السلام عن الإيمان والإسلام والإحسان، ج1، ص87، رقم 50، وأخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، ج1، ص36، رقم 9.

[24] ابن تيمية، **مجموع الفتاوي**، ج11، ص225.

[25] أبو الحسن على الندوي، **العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء القران والسنة والسيرة النبوية**، ص134.

من التعلق بشيءٍ معين، فيقال: "زهد فلان في الأمر"، أي: أعرض عنه فلم يعد يشغل باله، كما يأتي معنى الزّهد بأنّه الشّيء القليل، فيقال: "مبلغ زهيد"، أي قليل. أمّا بالمعنى الإصطلاحي فالزّهد هو العزوف عن الدّنيا ومتاعها وملذّاتها باعتبارها أمراً زائلاً، والرّضا بالقليل منها والقناعة بدون تكلّف، فيُقال: "الرّجل زاهد"، أي: وَرِعٌ.

وفي عهد الصحابة والتابعين – رضي الله عنهم – ظهر ميل بعضهم للزهد، واختاروا نمطاً معيناً من السلوك الاجتماعي في العلاقة مع الناس، وهو نمطٌ تطوَّر فيما بعد إلى شيء من العزلة عندما تزايدت مظاهر الاحتفال بالدنيا لدى بعض الفئات، وتواترت الفتن السياسية، وانتهى الأمر إلى تحول الزهد والعزلة إلى ما عرف بالتصوف.

4) **"التصوُّف"**:

لم يُعرَف هذا المصطلح بمعنى "تزكية النفس" إلا في القرن الثاني الهجري بعد عهد الرسالة والصحابة، كما قال الإمام ابن تيمية: "أما لفظ التصوف فإنه لم يكن مشهوراً فى القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل وأبي سليمان الداراني وغيرهما، وقد رُوي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الْحسن البصري"[26].

وإن كان مصطلح "التصوف" نشأ في معنى "التزكية"، وأساسه الزهد في متاع الدنيا، والإكثار من أعمال التقرب إلى االله سبحانه، وتطهير النفوس، وتصفية الأخلاق، لكن هذا المصطلح اختلط بالشرك، والبدعات والخرافات وغير ذلك من الأعمال غير الشرعية تدريجياً، ووراء هذا المصطلح بعض المزَكِّين والمرشدين في هذا الموضوع يهتمون بعرض ما لديهم من معارف وتجارب وخبرات غير موافقةٍ للقرآن والسنة، بل إن الأحاديث الموضوعة والقصص الواهية قد انتشرت فيه انتشاراً واسعاً وراء هذا المصطلح، بعد أن تمت تغطية الحقائق الصادقة تدريجياً، لهذا أنكرت طائفةٌ من الأمة هذه الحقيقة الشرعية الثابتة، وأهملتها بسبب ذلك.

وقال الشيخ أبو الحسن الندوي: "إن للمصطلحات والأسماء الشائعة بين الناس للأشياء جناية على الحقائق، ولهذه الجناية قصة طويلة في كل فن ولغة، وفي كل أدب ودين، فإنها تولِّد كائناً آخر تنشأ عنه الشبهات، وتشتد حوله الخصومات، وتتكون فيه المذاهب، وتستخدم لها الحجج والدلائل، ويحمي فيها وطيس الكلام والخصام. ومن هذه المصطلحات والأسماء العرفية التي شاعت بين الناس: (التصوف)، من هنا ثارت أسئلة وبحوث، وتساءل الناس ما مدلول

---

[26] ابن تيمية، **مجموع الفتاوي**، ج11، ص5.

الكلمة وما مأخذها؟ هل هو من الصوف أو من الصفاء، أو من الصفو؟ أو هي مأخوذةٌ من الكلمة اليونانية (صوفيا) معناها (الحكمة)؟، متى حدثت هذه الكلمة، ولم نعرف لها أثراً في الكتاب والسنة، وما جاءت في كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وما عُرفت في خير القرون، وكل ما كان هذا شأنه فإنه من البدع المحدثة، وقد حميت المعركة بين أصدقائه وخصومه، والموافقين والمعارضين، حتى تكونت بذلك مكتبة كبيرة يصعب استعراضها"[27].

ويقول أيضاً: "ومن هنا كانت جناية هذا المصطلح، والعرف الشائع (التصوف) على هذه الحقيقة الدينية الناصعة عظيمة، فقد حجبتها عن أنظار كثيرة، وصدّت فريقاً كبيراً من الناس عن سبيلها، والحرص على تحصيلها، ولكن كان ذلك لأسباب تاريخية يطول ذكرها، والأمور تجري كثيراً على غير الأهواء والمصالح، وليس لنا الآن إلا أن نقرر الحقيقة، ونتحرر من القيود والمصطلحات، ومن النَّزعات والتعصبات، ولا نفر من حقيقة دينية يقررها الشرع، ويدعو إليها الكتاب والسنة، وتشتد إليها حاجة المجتمع والفرد، لأجل مصطلح محدثٍ، أو اسم طارئ دخيل"[28].

ويقول – رحمه الله تعالى – وهو يشير إلى جنايةٍ أخرى على هذه الحقيقة: "ثم جنى على هذه الحقيقة الدينية شيء آخر، وهو أنه دخل فيها دجالون ومحترفون وباطنيون وملحدون، اتخذوها وسيلةً لتحريف الدين، وإضلال المسلمين، وإفساد المجتمع، ونشر الإباحية، وتزعّموا هذا الفن، وحملوا لواءه، فكان ذلك ضغثاً على إبالة، وزهد فيه ونفر منه أهل الغيرة الدينية، والمحافظون على الشريعة الإسلامية.

وطائفةٌ أخرى من غير المحققين لم يعرفوا روح هذه الشعبة وغايتها، ولم يميزوا بين الغاية والوسائل فخلطوا بينها، وألحوا على الوسائل أحياناً، وضيعوا الغاية، أو أدخلوا ما ليس من هذا الفن في صميم هذا الفن وصلبه، وعدّوه من الكمالات، ومن الغايات المطلوبة، وعقّدوا المسألة وطوّلوها، وجعلوا الشيء الذي يكلف به كل مسلم والذي هو لبُّ الدين وحاجةُ الحياة، لغزاً وفلسفة ورهبانية لا يجرؤ عليها، ولا يطمع فيها إلا من نفض يده من أسباب الحياة، ورفض الدنيا وما إليها. ولا شك أن أولئك قليل من قليل في كل عصر وجيل، وليست هذه دعوة الدين ولا أسوة الرسول ﷺ ولا حكمة الخلق"[29].

[27] أبو الحسن على الحسني الندوي، **ربانية ولارهبانية**، ص13-14.

[28] نفس المرجع، ص19.

[29] نفس المرجع، ص19-20.

من المعلوم أن مصطلح "التزكية" هي من المفاهيم الأصلية في القرآن الكريم والسنة النبوية، ويتخذ هذا المفهوم موقعاً مهماً ضمن منظومة المفاهيم القرآنية؛ وهي لفظة قرآنية وحديثية استخدمها الصحابة والتابعون ﷺ، وتعارف عليها السلف الصالح.

و"الإحسان" و"فقه الباطن" كذلك أيضاً قريبان من مصطلح "التزكية"، لكن "الزهد" و"التصوف" وغيرهما من المصطلحات التي نشأت بعد عهد الرسالة والصحابة، لا يناسب هذا المعنى والمفهوم. أما اذا عدلنا عن هذا المصطلح (التصوف) الذي نشأ وشاع في القرن الثاني، ورجعنا إلى الكتاب والسنة وعصر الصحابة والتابعين، وتأملنا في القرآن والحديث؛ وجدنا القرآن ينوّه بشعبة من شعب الدين، ومهمة من مهمات النبوة، يعبر عنها بلفظ التزكية[30]، ووجدنا لسان النبوة يلهج بدرجة فوق درجة الإسلام والإيمان، ويعبر عنها بلفظ (الإحسان)، فيسأل الرسول ﷺ ما الإحسان؟ فيقول: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[31]، فكان الأجدر بنا أن نسمي العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الرذائل النفسية الخلقية، ويدعو إلى كمال الإيمان والحصول على درجة الإحسان، والتخلّق بالأخلاق النبوية، واتباع الرسول ﷺ في صفاته الباطنية وكيفياته الإيمانية، كان الأجدر بنا وبالمسلمين أن يسمّوه: التزكية، أو الإحسان، أو فقه الباطن.

وفي ذلك يقول الشيخ الندوي: "ولو فعلوا ذلك لانحسم الخلاف وزال الشقاق، وتصالح الفريقان اللذان فرّق بينهما المصطلح، وباعد بينهما. فالتزكية، والإحسان، وفقه الباطن، حقائق شرعية علمية، ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنة، يُقِرّ بها المسلمون جميعاً، ولو ترك المتصوّفون الإلحاح على منهاج عملي خاص للوصول إلى هذه الغاية التي نعبر عنها بالتزكية، أو الإحسان، أو فقه الباطن، فالمناهج تتغيّر وتتطوّر بحسب الزمان والمكان، وطبائع الأجيال والظروف المحيطة بها، وألحوا على الغاية دون الوسائل، ولم يختلف في هذه القضية اثنان، ولم ينتطح فيها عنْزان، وخضع الجميع وأقرّوا بوجود شعبة من الدين وركن من أركان الإسلام يحسن أن نعبر بالتزكية أو الإحسان أو فقه الباطن، وأقرّوا بأنه روح الشريعة، ولب لباب الدين وحاجة

---

[30] ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو علىهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:2].

[31] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل عليه السلام عن الإيمان والإسلام والإحسان، ج1، ص87، رقم50؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، ج1، ص36، رقم9.

الحياة، فلا كمال للدين، ولا صلاح للحياة الاجتماعية، ولا لذة – بالمعنى الحقيقي – في الحياة الفردية إلا بتحقيق هذه الشعبة في الحياة"[32].

المبحث الثاني: أهمية تزكية النفس في القرآن الكريم والسنة النبوية:

تُعتبَر "تزكية النفس" من أهم شعب الدين، وأساس ذلك الخلوص في العمل والإخلاص في النية، وغايتها التعلق مع الله والحصول على رضاه، ولها شواهد كثيرة في القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد عُبِّر عن ذلك في القرآن الكريم بالتزكية، كقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عليهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]، وكما عُبِّر عن ذلك في السنة النبوية بالإحسان، كما جاء في حديث جبريل المشهور "مَا الْإِحْسَان؟" قال النبي ﷺ: «أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإن لَّمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[33].

هناك جانبان للنبوة: الجانب الأول تلاوة الآيات وتعليم الكتاب وتفسيره، والجانب الثاني تزكية النفوس والباطن، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

تقتضي هذه الآية أن نكون متورّعين في الحكم على سَلَف الأمة وسابقيها في الإيمان والإحسان، بل تقتضي الآداب القرآنية والتعاليم النبوية أن نكون متورّعين في الحكم على كل مسلم، لا نتهوّر ولا نتسرَّع، ولا نتحمس ولا نجزم، حتى نكون على بينة من الأمر، وحتى نستوثق ونتأكد[34].

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي: "وجدنا الشريعة، وما أُثر عن الرسول ﷺ من الأقوال والأحوال، ودُوِّن في الكتب، ينقسم بين قسمين: أفعال وهيئات وأمور محسوسة كقيام وقعود، وركوع وسجود، وتلاوة وتسبيح، وأدعية وأذكار، وأحكام ومناسك، قد تكفّل بها الحديث روايةً وتدويناً، والفقه استخراجاً واستنباطاً، وقام بها المحدِّثون والفقهاء – جزاهم الله عن الأمة – فحفظوا للأمة دينها، وسهَّلوا لها العمل به.

وقسمٌ آخَر هو كيفيات باطنية، كانت تصاحب هذه الأفعال والهيئات عند الأداء، وتلازم الرسول ﷺ قياماً وقعوداً، وركوعاً وسجوداً، وداعياً وذاكراً، وآمراً وناهياً، وفي خلوة البيت وساحة

---

[32] أبو الحسن على الندوي، **ربانية ولا رهبانية**، ص17-18.

[33] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم8.

[34] الندوي، **ربانية لا رهبانية**، ص: 9-10.

الجهاد، وهو الإخلاص والاحتساب والصبر والتوكل، والزهد وغنى القلب، والإيثار والسخاء، والأدب والحياء، والخشوع في الصلاة والتضرع، والابتهال في الدعاء، والزهد في زخارف الحياة، وإيثار الآخرة على العاجلة، والشوق إلى لقاء الله، إلى غير ذلك من كيفيات باطنية، وأخلاق إيمانية، هي من الشريعة بمَنْزلة الروح من الجسد، والباطن من الظاهر.

وتندرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات، وآداب وأحكام، تجعل منها علماً مستقلاً، وفقهاً منفرداً، فإن سُمِّيَ العلم الذي تكفَّل بشرح الأول وإيضاحه وتفصيله والدلالة على طرق تحصيله (فقه الظاهر)؛ وسُمِّيَ هذا العلم الذي يتكفل بشرح هذه الكيفيات، ويدل على طرق الوصول إليها (فقه الباطن)، وهي تزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل، التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة الصحابة – رضوان الله عليهم – وإخلاصهم وأخلاقهم، والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالي، الذي ليس له نظيرٌ في التاريخ، وهذه الحكومة العادلة الراشدة التي لا مثيلَ لها في العالم"[35].

إن إصلاح الأمم والمجتمعات لا يتم إلا بصلاح الأفراد، هذا ما فعله رسول الله ﷺ حينما أراد أن ينشئ أمةً مؤمنةً، فبدأ بإصلاح قلوبها وتزكية نفوسها، وتقويم أهدافها وباعثها، أصلِحْ نفسك يصلح المجتمع، غَيِّرْ ما بنفسك يتغير التاريخ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:11].

المطلب الأول: التزكية في القرآن الكريم:

تُعتبَر "التزكية" في القرآن الكريم من مقاصد الوحي، ومهمة من مهمات التي بُعث الرسل – ولا سيما خاتم الأنبياء محمد ﷺ – لتحقيقها وتكميلها، وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على أن مهمة الرسل كانت دعوة الناس إلى تزكية نفوسهم، قال تعالى لموسى – عليه السلام – في خطابه لفرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: 18]، هذا اللفظ قد ورد في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، ولكن ورد في أربع آيات بوصف التزكية مقصداً مباشراً من مقاصد، وبعثة خاتم النبي ﷺ، وهذه الآيات هي بالتحديد: قال الله تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ علينَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة: 128-129]. وقال سبحانه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عليكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ، وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ

[35] نفس المرجع، 16-17.

أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عليهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل: عمران 164]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عليهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

و"التزكية" في هذه الآيات جاءت تبيّن أنها من أهم مقاصد بعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وترسم هذه الآيات الأربع منهاجاً في تزكية الأمة يتكون من أربعة أركان، تتكامل فيما بينها، وتتضافر مكوناتها في بناء الأمة، وفي رسم صورتها، وتحديد خصائصها:

1) تلاوة الآيات، أي: إزالة الأمية، والارتفاع إلى مستوى التكريم الإلهي بتلاوة آياته والانتفاع بما فيها.
2) التزكية وتشمل خصائص الطهر والبركة.
3) تعليم الكتاب، أي: تعليم ما فيه من علم وهدى.
4) تعليم الحكمة، أي: تعليم مادة الكتاب وثمرة تعليمه وهي الإصابة في القول والفعل والعمل، واكتساب ملكة البصر بالأمور ووضعها في نصابها، ووزنها بموازينها، وإدراك أسبابها وغايتها.

فالتزكية كانت المقصد الثاني من هذه المقاصد، فالله تعالى إنما أرسل رسوله لهذه الأمة وهؤلاء الفئام من الناس لمقصد بيّنه بقوله: ﴿ويزكيهم﴾: أي يربّيهم، أي: يطهّرهم وينقّيهم، ويطهّر قلوبهم ومشاعرهم، ويطهّر بيوتهم وأعراضهم، ويطهّر حياتهم ومجتمعهم، ويطهّر نفوسهم من كل ما يلوثها ويشينها، ويصفي عقائدهم، ويطهّر سرائرهم، ويزكّي أخلاقهم.

يمتن الله عزَّ وجلَّ على عباده في هذه الآيات ببعثة النبي الكريم الذي أنقذهم به من الضلالة، وعصمهم به من الهلاك، وأخرجهم به من ظلمات الشرك والكفر والجهل إلى نور الإسلام والإيمان والإحسان، وبيّن أن من مهمات الرسول تعليم الناس آيات الله عزَّ وجلَّ ببيان ألفاظها ومعانيها وأحكامها، ومن أعظم وظائفه تزكية الناس من الشرك والمعاصي والرذائل وسائر مساوئ الأخلاق.

قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119].

فواضح من هذه الآية ونظائرها أن المسألة فيها ثلاث مهام آتية:

المهمة الأولى: علمية، وهي التعليم وتبليغ الشريعة.

والمهمة الثانية: عملية، وهي تطبيق تلك المبادئ على نفسه وعلى المجتمع المؤمن الذي يتبعه.

والمهمة الثالثة: روحية، وهي تزكية النفس وتطهيرها من سوء الاعتقادات، وسوء الأخلاق التي من أعظم غايات البعثة النبوية، كما قال ﷺ: «إنما بُعِثْتُ لأتمِّم مكارمَ الأخلاق»[36].

وقد وردت نصوص القرآن الكريم ببيان أهمية تزكية النفوس وما لها من مكانة عالية ومنْزلة رفيعة، ولعل من أبرز تلك النصوص وأظهرها قول الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا، وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا، كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: 1-11].

فلو تأملنا هذه الآيات لوجدنا أن الله سبحانه قد أقسم فيها أحد عشر قسماً على أن صلاح العبد وفلاحه منوط بتزكية نفسه، كما يؤكد هذا المعنى قول الله تعالى في موضع آخر من تنْزيله الحكيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: 14-15].

المطلب الثاني: التزكية في السنة النبوية:

روى عمر بن الخطاب ﷺ أن جبريل – عليه السّلام – لما جاء النبيَّ ﷺ، سأله عن الإسلام ثم الإيمان، ثم قال: "ما الإحسان؟" فقال ﷺ: «أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإن لَّمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[37]. فالإحسان في هذا الحديث معناه تزكية النفس، وهو الركن الثالث للدين، وخلاصته وأساسه وشعبته المهمة.

قال الإمام شاه ولي الله الدهلوي (ت1176هـ): "ومعظم ما دعت إلى إقامته الرسل أمور ثلاثة: الأول: تصحيح العقائد في المبدأ والمعاد والمجازاة وغيرها..... والثاني: تصحيح العمل في الطاعات المقربة. والثالث: تصحيح الإخلاص والإحسان الذين هما أصلا الدين الحنيفي الذي ارتضاه الله لعباده"[38].

وقال الدهلوي إشارةً إلى أهمية هذا الأمر الثالث: "وقد تكفل بفنِّ الأول فقهاء الأمة، فهدى الله بهما أكثرين، وقد تكفل بفنِّ الثاني أهل الأصول من علماء الأمة، وقد تكفل بفنِّ الثالث الصوفية رضوان الله عليهم. والذي نفسي بيده هذه الثالث أدَقُّ المقاصد الشريعة مأخذاً أو أعمقها محتداً، أو هو بالنسبة إلى سائر الشرائع بمنْزلة الروح من الجسد، وبمنْزلة المعنى من اللفظ"[39].

---

[36] أخرجه البخاري في **الأدب المفرد**، رقم273؛ والبزار في **المسند**، ج2، ص476، رقم8949. وهو حديث حسن.

[37] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم8.

[38] شاه ولي الله الدهلوي، **التفهيمات الإلهية**، ص130.

[39] المرجع السابق.

وقال الشيخ الْمُلاّ علي القاري (ت1014هـ) في شرح هذا الحديث: «أخبرني عن الإحسان»: "المعهود ذهناً في الآيات القرآنية في قوله تعالى: ﴿للذين احسنوا الحسنى﴾، و: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾، وقوله: ﴿أحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾، ما اشتمل على الإيمان والإسلام وغيرهما من الأعمال والأخلاق والأحوال"[40].

وقال الشيخ محمد أنور شاه الكشميري (ت1352هـ) في شرح هذا الحديث: "إن الإحسان ينقسم إلى حال وعلم، فإن مشاهدة الحق بقلبه كأنه يراه حال له وصفته قائمته به وليست علماً"[41]. وقال أيضاً: "واعلم أن لفظ الإحسان شامل لجميع أنواع البرّ من الأذكار والأشغال وغيرها. والأذكار تقال الأوراد المسنونة وما ذكره المشائخ من الكيفيات يقال لها: الأشغال. والنسبة في اصطلاحهم ربط خاص سوى ربط الخالقية والمخلوقية، فمن حصل له ربط سوى الربط العام يقال له: (صاحب النسبة)...، ثم ما نُقل إلينا من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد سُمِّي: (شريعةً)، والتخلُّق بها يُسَمَّى: (طريقةً)، وحينئذ تنصبغ الأعمال بصبغ الإيمان كما كان في السلف. أما اليوم علمٌ بلا عمل، وإيمان بلا تصديق من الجوارح، رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه، ثم الفوز بالمقصد الاسنى والنيل بالمآرب الأعلى يُسَمَّى: (حقيقة)، ومن ههنا ظهر أن الشريعة والطريقة لا تتغايران كما زعم العوام"[42].

وقال الشيخ عبد الحق الدهلوي (ت1052هـ) وهو يشرح هذا الحديثَ: "مَن تصوَّف ولم يتفقَّه؛ فقد تزندق. ومن تفقَّه ولم يتصوَّف؛ فقد تفسَّق. ومن جمع بينهما؛ فقد تحقَّق"[43].

وهو مصداقٌ لقوله ﷺ: «أَلاَ إِنَّ فِي الْجَسَدِ لَمُضْغَةٌ، إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ»[44]. ولم يذكر رسول الله ﷺ في حديثه هذا شيئاً عن علم الطب، بل ذكر أساس علم التزكية والتقوى.

وإشارةً إلى هذا قال النبي ﷺ: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلاَ فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»[45]، وقال أيضاً: «أَوَّلُ صَلاَحِ هَذَا الْأُمَّةِ الْيَقِيْنُ والزُّهْدُ، وَأَوَّلُ فَسَادُهَا الْبُخْلُ وَالْأَمَلُ»[46].

---

40 علي بن سلطان محمد القاري، **مرقاة المفاتيح شرح المشكوة المصابيح**، ج1، ص59.

41 أنور شاه الكشميري، **فيض الباري علي صحيح البخاري**، ج1، ص149.

42 المرجع السابق.

43 عبد الحق الدهلوي، **أشعة اللمعات شرح المشكوة المصابيح**، ج1، ص45.

44 أخرجه البخاري في **صحيحه** كتاب الإيمان، حديث رقم 52.

45 أخرجه الترمذي في **جامعه** عن كعب ابن مالك، رقم 2376، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

والتزكية هي تطهير النفس عن الميل إلى ما حرم الله تعالى ورسوله ﷺ، والانحياز إلى ما أمر الله تعالى به ورسوله عليه الصلاة والسلام، قال ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعَمَ طَعْمَ الْإِيمَان: مَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ فإِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسَهُ... وَزَكَّى عَبْد نَفْسهُ»، فَقَالَ رَجُلٌ: مَا تَزْكِيَةُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ يا رسول اللهِ؟ قَالَ:« يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ مَعَهُ حَيْثُمَا كَانَ»[47].

روى ابن ماجه عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا ابْنَ آدَمَ! اثْنَتَانِ لَمْ تَكُنْ لَكَ، وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا جَعَلْتُ لَكَ نَصِيبًا مِنْ مَالِكَ حِينَ أَخَذْتُ بِكَظَمِكَ لأُطَهِّرَكَ بِهِ وَلأُزَكِّيَكَ، وَصَلاةُ عِبَادِي عَلَيْكَ بَعْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِكَ»[48].

ويُستنبَط من هذا الحديث أن المصائب التي تحل بالنفوس والأموال تزكيةً للأعمال؛ ولهذا وجب الشكر على القضاء، مهما اشتد البلاء طمعا في التزكية.

وعن خَارِجَة بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، أَنَّ أُمَّ الْعَلاَءِ – امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ – بَايَعَتِ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتُسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً، فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ، دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ»؟ فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ؟ فَقَالَ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي – وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ – مَا يُفْعَلُ بِي». قَالَتْ: فَوَاللَّهِ لاَ أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا[49].

والحكم المستنبَط: أن لا يحتم أحد على الله، وأن الآخرة غيب لا يدركه إلا الله، ومتى ما اغتر المؤمن بالأعمال قد انقطعت عنه الآمال.

والتزكية منحة الله تعالى، وسِرُّ القلوب لا يعلمه إلا علاَّم الغيب؛ لهذا وجب على المؤمن أن يتخلى عن العجب والغرور، فمن ظن بأنه وصل فقد فشل، حيث إن التزكية منحة إلهية، يتمتع بها صاحبها يوم القيامة إذا أفلح وفاز في محكمة العدل الإلهية الكبرى، وهذا التاج لا يرتديه المؤمن إلا إذا نشأ على هدى واستقامة، ومات على الاستقامة أيضاً. فلقد منع الرحمة المهداة أن

---

46 أخرجه البيهقي في **شعب الإيمان**، رقم10445، وهو حديث حسن.

47 أخرجه الطبراني في **المعجم الصغير**، برقم555، وأبو داود مختصراً في **سننه**، رقم 1582، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى، ج4، ص96. وانظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ص538. وإسناد رجاله ثقات.

48 أخرجه ابن ماجه، **في السنن**، كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، ج2، ص904، رقم2701. وهو حديث ضعيف.

49 أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت...، رقم1243.

يزكي مؤمن مؤمناً على الله تعالى؛ لأن سر القلوب لا يدركه إلا علام الغيوب، كما روى ابن ماجه عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَدَحَ رَجُلٌ رَجُلاً عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ: فَقَالَ: «وَيْحَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، مِرَارًا، إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلاَنًا، وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلاَ أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ»[50].

ومن معاني التزكية أنها تطهر الأعمال كما تطهر الصدقة الأموال، وقد ثبت هذا من دعاء مأثور عن الرسول ﷺ، فعن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال: سمعت نبي الله ﷺ يقول ليلة حين فرغ من صلاته: «اَللَّهُمَّ! إِنِّيْ أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِكَ، تَهْدِيْ بِهَا قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكّي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء... » إلى أخر الحديث[51].

إن التصدُّق بالذهب يفضي إلى تطهير الأموال، سواء أكان بالصدقة المفروضة أم التطوعية، فكيف تزكى الأعمال؟ وإن تزكية أعمال المؤمنين تتجلى بالصبر على الخطوب؛ لأن للصَّبر أزكى دليل على حب المخلوق للخالق الجليل. وعن معاذ بن جبل ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سَتُهَاجِرُونَ إِلَى الشَّامِ، فَيُفْتَحُ لَكُمْ، وَيَكُونُ فِيكُمْ دَاءٌ كَالدُّمَّلِ، أَوْ كَالْحَرَّةِ، يَأْخُذُ بِمَرَاقِ الرَّجُلِ، يَسْتَشْهِدُ اللَّهُ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيُزَكِّي بِهِ أَعْمَالَه. اللَّهُمَّ! إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطِهِ هُوَ وَأَهْلَ بَيْتِهِ الْحَظَّ الْأَوْفَرَ مِنْهُ، فَأَصَابَهُمُ الطَّاعُونُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَطُعِنَ فِي أُصْبُعِهِ السَّبَّابَةِ، فَكَانَ يَقُولُ: "مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا حُمْرَ النَّعَمِ".[52]

ومن ثَم حرص النبي ﷺ على تحقيق هذا المقصد، فزكَّى نفوسَ أصحابه من أدران الجاهلية وأوضارها، وأقام مجتمع المساواة والعدالة، ونهى عن التكبر باسم الأنساب فقال لأبي ذرٍّ ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية»[53]، ونهى عن الغضب لأنه مفتاح الشرور، فعن أبي هريرة ﷺ، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: "أوصني"، قال: «لا تغضب»، فردّد، قال: «لا تغضب»[54].

---

[50] أخرجه ابن ماجه في **السنن**، كتاب الأدب، رقم3734. وأخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الشهادات، رقم2468.

[51] أخرجه الترمذي **في سننه**، ج5، ص482، رقم3419. وقال: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي ليلى من هذا الوجه".

[52] أخرجه أحمد في **مسنده**، رقم21074. وهو حديث صحيح.

[53] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، رقم6050.

[54] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم 5765.

وكان النبي ﷺ يهتم بمشاكل أصحابه النفسية ويعالجها، فقد جاءه شابٌ يحب الزنا، ويعاني من عدم قدرته على تركه، فأثار النبي ﷺ فيه عوامل الغيرة والإحساس بالآخرين، حتى خرج من عند النبي والزنا أبغَضُ شيءٍ إليه، فعن أبي أمامة ﷺ قال: "إن فتىً شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ائذن لي في الزنا، فأقبل القوم فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال له: «ادنه» – أي اقترب مني – فدنا منه قريباً، قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم» قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: "لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك". قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أفتحبه لأختك؟» قال: "لا والله، جعلني الله فداءك". قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: "لا والله، جعلني الله فداءك". قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: "لا والله، جعلني الله فداءك". قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال – أي راوي الحديث: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم! اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه»، فبعد ذلك لم يكن الفتى يلتفت إلى شيء[55].

وهنا يبرز مفهوم "التزكية" بإيقاظ الشعور وتنميته، وإلا فلو افترضنا أن الشاب قال للنبي ﷺ: "نعم أرضاه" لما غير ذلك في الحكم الشرعي شيئاً.

والنماذج الخاصة في التزكية في سنة النبي ﷺ كثيرة، كل ذلك بالإضافة للوصايا العامة التي تقوي في المسلم جانب المراقبة لله في كل وقت وحين، ومنه قول النبي ﷺ: «اِتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ»[56]، يضاف إلى ذلك قيام المسلم بالفرائض من العبادات، وما يتبعها من النوافل، وقيام الليل وذكر الله، والتصدُّق، مما يؤثر على تزكية النفس إيجابياً ليكون المؤمن من المفلحين الذين قال الله فيهم: ﴿قَدْ اَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّي﴾ [الأعلى: 14].

قال الإمام ابن قيم الجوزية: "فإن تزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاَّهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليماً وبياناً وإرشاداً... فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم... وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد"[57].

ولهذه الأهمية كان النبي ﷺ يسأل ربه أن يزكي نفسه، ويعوذ به مما يخالف ذلك فيقول: «اَللَّهُمَّ! آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا»[58]، ويقول أيضاً:

---

[55] أخرجه أحمد في **المسند** عن أبي أمامة، د1، ص129، وهو حديث صحيح، انظر: الصحيحة للألباني، ص370.

[56] أخرجه الترمذي في **سننه**، رقم 1987، أخرجه أحمد في مسنده، ج5، ص228. وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح".

[57] ابن القيم، **مدارج السالكين**، ج2، ص356.

«اللهم! إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»[59]. وقد علَّم النبيُّ ﷺ حصينَ بن عبيد ﷺ أن يقول: «اَللَّهُمَّ! أَلْهِمْنِيْ رُشْدِيْ، وَأَعِذْنِي شَرَّ نَفْسِيْ»[60].

فقد صرحت نصوص الكتاب والسنة بأن اعتقاداتنا وأعمالنا تؤثر في نفوسنا تأثيراً كبيراً، فهي إما أن تزكيها أو تدنِّسها، كما جاء في حديث حذيفة بن اليمان ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوْبِ كَالْحَصِيْرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نَكَتَتْ فِيْهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نَكَتَتْ فِيْهِ نَكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى يَصِيْرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، أَبْيَض بِمِثْلِ الصَّفَا، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَادَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوْزِ مُجَخِّيًا، لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوْفًا، وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلاَّ مَا أُشْرِبَ منْ هَوَاهُ»[61].

فالاعتقادات التي نعتقدها، والأعمال التي نعملها، لها تأثير كبير في نفوسنا، وأحياناً يصل هذا التأثير إلى درجة أنها تحيي أو تميت القلوب التي جعلها الله محل العقل والتدبير والسكينة والإيمان والرأفة والرحمة والإنابة.

ومما سبق عرفنا من خلاله شيئاً عن مفهوم "التزكية" ومكانتها من الدين، أما رجالها المرابطون عليها علماً وعملاً، فهم الروح الذي يسري في جسد هذه الأمة، فيحييها بإذن الله، ويستنقذها من ركامها ووهدتها، وهم أملها في كل غبراء مظلمة، وحاديها في طريقها إلى الله تعالى، وعنهم يقول الشيخ أبو الحسن الندوي: إنهم "يجددون هذا الطلب النبوي لكل عصر، وينفخون في الأمة روحاً جديدةً من الإيمان والإحسان، ويجدِّدون صلة القلوب بالله، والأجسام بالأرواح، والمجتمع بالأخلاق، والعلماء بالربانية، ويوجدون في الجمهور قوة مقاومة الشهوات، وفتنة المال والولد، وزينة الحياة الدنيا، وفي الخواص قوة مقاومة صلات الملوك وسياطهم، ووعدهم ووعيدهم، والجرأة على الجهر بكلمة حق عند سلطان جائر، واحتساب الملوك والأمراء، والقناعة

---

58 أخرجه ابن أبي عاصم في **السنة**، ج1، ص140، رقم319؛ وابن أبي حاتم الرازي في **تفسيره**، ج12، ص413. وحسَّنه الشيخ الألباني.

59 أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التعوذ من شر ما عمل...، ج4، ص2088، رقم (2722).

60 أخرجه الترمذي في **سننه**، ج5، ص519، رقم3483 وقال: "هذا حديث غريب". وأخرجه أحمد في **مسنده**، ج4، ص444، رقم20006 بسند آخر قال فيه محقق المسند شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

61 أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب أن الإسلام بدأ غريبا...، ج1، ص128، رقم231 (144). وقوله: "مربادا" هكذا في جميع نسخ صحيح مسلم كما قال النووي، وهو منصوب على الحال. ومعناه: مسود محمر. وأما قوله: "مجخيا" فمعناه مائلا. انظر: النووي، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، ج2، ص172.

باليسير، فيستطيع أحدهم أن يقول – وقد طُلب منه أن يقبل يد الملك ليرضى عنه –: يا مسكين! والله ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلاً عن أن أقبل يده، يا قوم! أنتم في واد، وأنا في واد"[62].

فالتزكية ليست مفقودة أو ناقصة عند العصاة فحسب، بل هي ناقصة أو مفقودة عند كثير من الطائعين؛ لذا وجب التذكير بها، فإذا فُقدت التزكية من أهل الخير والصلاح والطاعة، فماذا في بقية الناس من المتلبسين بالبدع أو المنغمسين في الشهوات والمعاصي؟.

الخاتمة:

وقد توصَّل الباحث من خلال إعداد هذا البحث إلى نتائج مهمة، وهي كالآتي:

1) أن "تزكية النفس" ثابتة بالقرآن الكريم والسنة النبوية.
2) أن "تزكية النفس" تشمل المجتمع الإسلامي بكافة طبقاته وأجناسه، ولا تقتصر على ميادين النفس فقط، ولكنها تمتد لتشمل جميع الأبعاد الإنسانية النفسية والعقلية والجسمية والمالية، بل هي مرتبطة بهدف خلق الإنسان.
3) أن "تزكية النفس" ليست شيئاً عارضاً أو هيناً في ميزان الإسلام، بل هي ركن ركين من أركانه، وشعبة عظيمة من شُعَبه، أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، ليقوم العباد بتزكية نفوسهم وإصلاحها.
4) أن الأمة تحتاج إلى "تزكية النفس" احتياجاً شديداً؛ لأن حياتها تقوم عليها من أولها إلى آخرها، مثل أوجاع الجسم تماماً، التي تجعلنا نبادر إلى معالجتها، فأوجاع النفس أَوْلَى بتلك المبادرة. فالقلب السليم هو الشرط الوحيد للنجاة، لكننا قد لا نحس بعيوبنا الشخصية كما نحس بأوجاعنا البدنية، لذلك من المهم أن نتفقد أنفسنا لنتبصر مواضع عِلَلها، فالله سبحانه قد خلق الإنسانَ وكرَّمه، ولم يدعه يتخبط في هذه الحياة خبط عشواء بلا منهج ولا دليل، وإنما بيَّن له طريق الهداية ليسير عليه، وحذَّره من طريق الضلالة ليبتعد عنه، وفي ذلك صلاح نفسه، وسعادتها في الدنيا والآخرة، وكلما ازداد الإنسان تمسُّكاً بطاعة الله سبحانه واستجابةً لأمره، كان تحققه بمعاني الإيمان أكبر حتى يترقى في الدرجات إلى مقام الإحسان الذي هو أعلى مقامات الدين، والثمرة العظمى لمنهجه القويم في "تزكية النفس.

[62] أبو الحسن علي الندوي، **ربانية ولارهبانية**، ص13.

المصادر والمراجع:

1) ابن أبي حاتم الرازي، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر. **التفسير**. تحقيق: أسعد محمد الطيب. مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز. ط3. 1419هـ.
2) ابن أبي عاصم، عمرو بن الضحاك الشيباني. **السنة**. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. بيروت: المكتب الإسلامي. ط1. 1400هـ.
3) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني. **مجموع الفتاوى**. تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي وأشرف جلال الشرقاوي. القاهرة: دار الحديث. ط1. 1427هـ.
4) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي. **تاريخ دمشق**. بيروت: دار الفكر. ط1. 1419هـ/1998م.
5) ابن قيم الجوزية، أبو بكر شمس الدين عبد الله بن محمد الدمشقي. **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**. تحقيق: محمد حامد الفقي. بيروت: دار المعرفة. ط2. 1395هـ/1975م.
6) ابن قيم الجوزية، أبو بكر شمس الدين عبد الله بن محمد الدمشقي. **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح بتصرف**. بيروت: دار الكتب العلمية. د.ط. د.ت.
7) ابن قيم الجوزية، أبو بكر شمس الدين عبد الله بن محمد الدمشقي. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**. القاهرة: مؤسسة مختار للنشر والتوزيع. 2003م.
8) ابن قيم الجوزية، أبو بكر شمس الدين عبد الله بن محمد الدمشقي. **هداية الحياري في أجوبة اليهود والنصاري**. المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية المدينة. د.ت.
9) ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد الربعي القزويني. **السنن**. بيروت: دار الفكر. د.ت.
10) ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري. **لسان العرب**. بيروت: دار صادر. ط1. د.ت.
11) الألباني، محمد ناصر الدين. **سلسلة الأحاديث الصحيحة**. الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. ط2. 2007م.
12) أنس كرزون. **منهج الإسلام في تزكية النفس**. بيروت: دار نور المكتبات. 1997م.
13) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي. **الأدب المفرد**. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار البشائر الإسلامية. ط3. 1409هـ/1989م.
14) البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي. **السنن الكبرى**. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. مكة المكرمة: مكتبة دار الباز. ط1. 1414هـ/1994م.
15) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي. **السنن**. بيروت: دار الغرب الإسلامي. ط1. 1998م.
16) حوى، سعيد. **المستخلص في تزكية الأنفس**. القاهرة: دار السلام. ط4. 1408هـ.
17) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت. **تاريخ بغداد**. بيرزت: دار الكتب العلمية. د.ت.
18) الدهلوي، شاه ولي الله، قطب الدين أحمد. **التفهيمات الإلهية**. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية. (مخطوط). 1936م.

19) الدهلوي، عبد الحق بن سيف الدين البخاري. **أشعة اللمعات شرح مشكاة المصابيح**. الهند: المكتبة الأشرفية. ط1. 1995م.

20) الصابوني، محمد علي. **صفوة التفاسير**. القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع. ط1. 1417ه/1997م.

21) الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم. **المعجم الصغير**. تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير. بيروت: المكتب الإسلامي. عمان: دار عمار. ط1. د.ت. 1405ه/1985م.

22) العلواني، رقية طه جابر. **منهج ابن قيم الجوزية في تزكية النفس**. مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها. ج٩. ع٣١. رمضان ١٤٢٥ه.

23) علي بن عبده بن شاكر أبو حميدي. **تزكية النفس في الإسلام وفي الفلسفات الأخرى دراسة تحليلية**. رسالة الدكتوراة في قسم الأوصول الإسلامية للتربية بجامعة أم القري. مكة المكرمة. 1429ه.

24) الغزالي، محمد. **خطبه**. موقع المكتبة الشاملة.

25) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب مجد الدين. **بصائر ذو التمييز في لطائف الكتاب العزيز**. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. ط3 1416ه/996م.

26) القاري، علي بن سلطان محمد الهروي. **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**. بيروت: دار الفكر. 1422ه / 2002م.

27) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر. **الجامع لأحكام القرآن**. القاهرة: دار الكتب المصرية ط2. 1384ه/1964م.

28) الكشميري، محمد أنور شاه. **فيض الباري على صحيح البخاري**. بيروت: دار الكتب العلمية. 1426ه/2005م.

29) **مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. الصحيح. الرياض: دار طيبة. ط1. 1427ه/2006م.**

30) المعافى بن زكريا بن يحيى الجريري النهرواني. **الجليس الصالح والأنيس الناصح**. موقع المكتبة الشاملة.

31) الندوي، أبو الحسن علي الحسني. **ربانية لارهبانية**..دمشق: دار القلم. ط1. 1421ه.

32) الندوي، أبو الحسن علي الحسني. **العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء القرآن والسنة والسيرة النبوية**. الكويت: دار القلم. ط2. 1983م.

33) النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري. **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ط2. 1392ه.

REFERENCES

Al-Razi, I. A. (1998). *Al-Tafsir*. Mecca: Maktabah Mustafa al-Baz.
ʻĀshim, I. A. (1980). *Al-Sunnah*. Beirut: al-Maktab al-Islami.

Ibn Taymiyyah. I. (2006). *Majmu' al-Fatawa*. Cairo: Dar al-Hadith.
Ibn 'Asakīr, I. (1998). *Tarikh Dimashq*. Beirut: Dar Al-Fikr.
Al-Jawziyah, I. Q. (nd.). *Hadi al-Arwāh Ila Bilād al-Afrāh Bi Tasrif.* Beirut: Dar Al-Kutub al-Alamiyah.
Al-Jawziyah, I. Q. (2003). *Madārij al-Sālikīn Bayna Manāzil Iyyāka Na'budu wa Iyyāka Nasta'in*. Cairo: Muassasah Mukhtar.
Al-Jawziyah, I. Q. (nd.). *Hidayah al-Hiyarī Fi Ujūbiyah al-Yahūd wa al-Ansari*. Medina: University Islamic Medina.
Ibn Majah, I. (nd.). *Al-Sunan*. Beirut: Dar al-Fikr.
Ibn Manzur, I. (nd.). *Lisan al-'Arab*. Beirut. Dar al-Sadar.
Al-Albani, M. N. (2007). *Silsilah al-Ahadith al-Sahihah.* Riyadh: Maktabah al-Ma'arif.
Kazrun, A. (1997). *Manhaj al-Islam Fi Tazkiyatun Nafs.* Beirut: Dar Nur al-Maktabah.
Al-Bukhari, A. (1989). *Al-Adab Al-Mufrad*. Beirut: Dar al-Bashair al-Islamiyah.
Al-Baihaqi, A. (1994). *Al-Sunan al-Kubra.* Mecca: Maktabah Dar al-Baz.
Al-Tirmidhi, A. (1998). *Al-Sunan*. Beirut: Dar Al-Gharb al-Islami.
Hawa, S. (1988). *Al-Mustakhlis Fi Tazkiyah al-Nafs.* Cairo: Dar al-Kutb al-'Alamiyah.
Al-Dahlawi, S. (1936). *Al-Tafhīmāt al-Ilahiyah.* Riyadh: Maktabah al-Malik Fahd al-Wathaniyah.
Al-Dahlawi, S. (1995) *Asha'ah al-Lam'āt Sharh Mushkatu al-Masābīh*. India: Al-Maktabah al-Ishrafiyah.
Al-Ṣabuni, M. (1997). *Ṣafwah al-Tafasir*. Cairo: Dar Al-Ṣabuni.
Al-Thabrani, S. (1985). *Al-Mu'jam al-Ṣaghīr.* Oman: Dar 'Amar.
Al-'Alwani, R. (2004). Manhaj Ibn Qayim al-Jawziyah Fi Tazkiyah al-Nafs. *Majalah Jami'ah Umm al-Qura Li 'Ulum al-Shari'ah wa al-Lughah al-'Arab wa Adabīha*. Vol 9, Issue 31.
Hamidi, A. (2008). *Tazkiyah al-Nafs fi al-Islam wa Fi al-Falsafāt al-Ukhra Dirasat Tahliliyah.* Risalah al-Dukturiyah Fi Qism al-Usul al-Islamiyah Li Tarbiyah Bi Jami'ah Umm al-Qura. Mecca al-Mukarramah.
Al-Ghazali, M. (nd.). *Khutbah.* np. Mauqi' al-Maktabah al-Syamilah.
Abadi, F. (1996). *Baṣair Dhū al-Tamyiz Fi Li Thaif al-Kitab al-'Aziz*. Cairo: Al-Majlis al-A'la Li al-Shu'ūn al-Islamiyah.
Al-Qari, M. (2002). *Muraqah al-Mafatih Sharh Mushkatu al-Maṣabīh.* Beirut: Dar al-Fikr.
Al-Qurtubi, M. (1964). *Al-Jami' Li Ahkam al-Quran*. Cairo: Dar al-Kutub al-Misriyyah.

Al-Kashmiri, M. (2005). *Fayd al-Bari 'Ala Sahih al-Bukhari*. Beirut: Dar al-Kutub al-'Alamiyah.

Muslim, A. (2006). *Al-Sahih*. Riyadh: Dar Thaiyah.

Al-Nahrawi, M. (nd.). *Al-Jalīs al-Salih wa al-Anis al-Nāṣih*. np. Mauqi' al-Maktabah al-Shamilah.

Al-Nadwi, A. (2000). *Rabaniyah Li Arhabaniyah.* Damascus: Dar al-Qalam.

Al-Nadwi, A. (1983). *Al-'Aqidah wa al-'Ibadah wa al-Suluk fi Dhu' al-Quran wa al-Sunnah wa al-Sirah al-Nabawiyah.* Kuwait: Dar al-Qalam.

Al-Nawawi, A. Z. (1963). *Al-Manhaj Sharh Sahih Muslim bin Al-Hajjaj*. Beirut: Dar Ihya al-Turath al-'Arabi.